52 Surah Al–Toor Tafsir Nazamuddurrar li Baqaaee

▲ سورة الطور

52 مكية

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1– 10]

{وَالطُّورِ (1)
وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (2)
فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3)
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4)
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5)
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6)
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7)
مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (8)
يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9)
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (10)}

لما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد، افتتحت هذه بإثبات العذاب الذي هو روح الوعيد، فقال تعالى: {والطور *} وذلك أنهم لما كانوا يقولون عما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم: إنه سحر خيال لا حقيقة له، أقسم بالجبل– الذي هو عندهم وعند غيرهم من ذوي العقول– أثبت الأرض وأشدها

وأصـــــلبها، وعبر عنه بالطور الذي هو مشـــــترك بين مطلق الجبل وبين المضـاف إلى سينا الذي كان فيه نبوة موسـى عليه السـلام وإنزال كثير من كتابه وغير ذلك- آيات تعلمها بنو إسرائيل الذين يستتصحونهم ويسألونهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ويرضون بقولهم فيه فمن آياته أنه كانت فيه الرحمة بمناجاة موســـعليه الســـلام وما كتب له فيه على ألواح الجوهر وما أنزل عليه من الناموس الذي جعله هدى ورحمة وموعظة وذكراً وتفصـــيلاً لكل شيء وكان فيه مع الرحمة العذاب بما أتاهم من الصاعقة التي أماتتهم ثم أحياهم الله وبما كانوا يشـــهدون من الســـحاب الذي تخلله فيكون كقتار الأتون، وفيه بروق كأعظم ما يشاهد من النار، وأبواق تزعق بصوت هائل، ولما شوهد من اندكاك لجبل عند التجلي وصعق موسى عليه السلام إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف الظلمات، وأيضاً فالطور كل جبل ينبت، وإنبات الجبل عجيب، فإن نباته لا يكون إلا بسـبب، وسـبب النبات الماء، والماء منبث في الأرض لتركبها عليه وهو مواز لما انكشـــف منه من ماء البحار، وكلما علت الأرض بعدت عن الماء، والجبال أبعدها منه، فســـبب إنباته خفي جداً لا يعلمه إلا الله ومن فهمه إياه.

ولما كانت الأرض لوح الســـماء التي منها الوعيد، وكانت الجبال أشـــدها، فذكر أعظمها آية، وكان الكتاب لوح الكاتب، وكانت الكتب الإلهية أثبت الكتب، وكان طور سينا قد نزل كتاب إلهي قال: {وكتاب} وحقق أمره بقوله: {مسطور *} أي متفق الكتابة بسطور مصفوفة من حروف مرتبة جامعة لكلمات متفقة ككتاب موسى عليه السلام الذي أنزله عليه وكلمه بكثير منه

في الطور وتنكيره للتعظيم لأنـه إن كـان المراد بـه الكتب الإلهيـة فهو أثبت الأشياء، وإن كان المراد صـحيفة قريش فقد كانوا ظنوها أثبت العهود، وذكر أمتن ما يكتب فيه وأشـده وأتقنه فقال: {في رق} أي في جلد مهيأ بالقشـر للكتابة {منشـور *} أي مهيأ للقراءة والاتعاظ بما فيه، ويمكن أن يكون أراد به جميع الكتب المنزلة عاماً بعد خاص، قال الرازي: قال الصـادق: إن الله تجلى لعبده بكتابه كما تجلى بالطور لما كان محلاً للتجلي خلقاً، والكتاب لما كان محلاً للتجلي أمراً، أجراهما في قرن- انتهى. ويجوز أن يكون أراد به سبحانه صحيفة الظلم التي كتبوها بما تعاقدوا عليه من أنهم لا يعاشرون بني هاشـم ولا يكلمونهم ولا يبايعونهم ولا يشـاورونهم ولا يناكحونهم ولا يؤازرونهم ولا يعاملونهم حتى يسـلموا إليه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وعلقوها في جوف الكعبة فانحاز بنو هاشم إلى شعب أبي طالب خلف أبي قبيس وتبعهم بنو المطلب رهط إمامنا الشـافعي رضـي الله عنه، فتحيزوا معهم من بين بني عبد مناف، فكان ذلك سـبب شـرفهم على مدى الدهر، فأرسـل الله على الصـحيفة- بعد أن مضـى على ذلك سـنتان حين جهدهم العيش ومضّـهم الزمان وزلزلتهم القوارع زلزالاً شـديداً وهم ثابتون ليظهر الله بذلك شـرف من شـاء من عباده- الأرضـة، فأبقت ما فيها من أسـماء الله تعالى ومحت ما كان من ظلمهم وقطيعتهم، فكان ذلك سـبباً لأن قام في نقضـها معشـر منهم، فنقضـها الله بهم، وكانوا إذا ذاك كفرة كلهم ليظهر الله قدرته سـبحانه على كل من النقض والإبرام بما شـاء ومن شـاء {والبيت المعمور *} الذي هو قيام للناس كما كانت قبة الزمان قياماً لبني إسـرائيل،

هذا إن كان تعالى أراد به الكعبة التي علقوا فيها الصحيفة بعد أن كانوا لما عمروها اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه، وزاد بهم الاختلاف حتى تهيؤوا للقتال وتحالفوا عليه، فكان منهم لعقة الدم، ومنهم المطيبون كما هو مشهور في السير، ثم وفقوا لأن رضوا أن يحكم بينهم أو داخل من باب عينوه، فكان أول داخل منه النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا بأجمعهم: هذا محمد هذا الأمين، رضينا بحكمه، فحكم صلى الله علي وسلم بأن يوضع الحجر الشريف في ثوب ويأخذ رئيس كل قبيلة بطرف من أطرافه ويرفعوه كلهم، فلما وازى موضعه أخذه هو صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة فوضعه في موضعه، فكان الفخر له مضاعفاً بحكمه وإصلاحه بينهم، واختصاصه بوضعه وهو معمور بالزوار والخدمة وكثرة الحاشية.

ولما كان البيت لا بد في مسماه من السقف قال: {والسقف المرفوع *} يريد سقف الكعبة إشارة إلى أنه محكم البناء مغلق الباب متقن السقف إتقاناً هو أعظم من إتقان سقف قبة الزمان التي شاهد فيها بنو إسرائيل من العظمة الإلهية والجلال ما إن سألتموهم عنه أخبروكم به، ومع ذلك سلط على الصحيفة- التي في جوفه، ولعلها كانت في سقفه بحيث لا يصل إليها أحد- ما أفسدها تحقيقاً لثبوت ما أراد من أمره تحذيراً مما توعد به، ويمكن أن يراد به مع ذلك السماء التي فيها ما توعدون، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السقوف لا يرتفع توعدون، ومن المعلوم أن لكل ذي عقل أن أقل السقوف لا يرتفع بغير عمد إلا بأسباب لا ترى، فكيف بالسماء التي لها

من السعة والعظمة والثخن وما فيها من الكواكب ما لها مما لا يسع العقول شرحه، وهم لا ينظرون أسبابه كما قال تعالى

{بغير عمد ترونها} [الرعد: 2] ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنه العرش وهو سقف الجنة.

ولما كان الماء أقوى من كل ما تقدم، ختم به فقال: {والبحر المسجور *} أي الذي فيه من الماء أكثر من ملئه وهو ساجره أي مانعه– كما يمنع الكلب بساجوره عن الانسباح، ولو أراد خلاه فاندفق فجرى فأهلك ما مر عليه من جبل وكتاب وبيت كما شوهد لما شجره سبحانه لبني إسرائيل فانفلق، ونشفت أرضه ثم لما أراد سببه أن فرعون فعذبهم به فأهلكهم حتى لم يبق منهم أحد.

ولما أقسم بما يدل على نبوة موسى عليه السلام وثلث بما أشار إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وثنى بما هو مشترك بينهما، وكان الأول مع ذلك دالاً على استقرار الأرض، والثالث على صلاحيتها للسكنى، والثاني على الحافظ في ذلك، وربع بما كمل المنافع، وحذر من السقوط كما خوف بالأول من الخسف، وخمس بما دل على ما أريد بالأول من الاستقرار لأنه لو كان ميل لانطلق البحر إلى جهته، أجاب القسم بقوله: {إن عذاب} ولما كان سبحانه عظيم الإكرام له صلى الله عليه وسلم، أضاف العذاب إلى صفة الإحسان والتربية الخاصة به، وأضاف الصفة إلى ضميره إيذاناً بأنه يريه في أمته ما يسره، وإن مماثلة «ذنوبهم كذنوب أصحابهم» الماضين إنما هي في مجرد الإذلال، لا في أنه يستأصلهم كما استأصل أولئك فقال:

{ربك} أي الذي تولى تربيتك أي عذاب أراده بكل من أراد به لا سـيما المعادي لأوليائه سـبحانه {لواقع *} أي ثابت نازل بمن أراد نزول ما هو ثقيل من مكان عال كما أنه لو أراد لقلب الأرض التي ثبتها وأوقع السـقف الذي رفع، وأطلق البحر الذي سـجر، كما علم من إطلاقه البحر فلقه على آل فرعون حتى أغرقهم به {ما له من دافع *} لأنه لا شـريك لموقعه لما دلت عليه هذه الأقسـام من كمال قدرته وجلال حكمته وضـبط أعمال العباد للمجازاة سواء قلنا: إن الكتاب هو الذي يكتبه الحفظة أو الذي يضبط الدين، فلما أوقع الجزاء بهم في الصـحيفة، ونقض معاقدتهم، وفض جمعهم، أخرج معاشـرك من ذلك الضـيق فكذلك يؤيدك حتى توقع بهم وتنقض جمعهم وتكسـر شـوكتهم ونقتل سـرواتهم ويظهر دينك على دينهم، ويصـير من بقي منهم من حزبك وأنصـار دينك، قال البغوي: قال جبير بن مطعم رضـي الله عنه: قدمت المدينة لأكلم رسول الله صـلى الله عليه وسلم في أسـارى بدر، فدفعت إليه وهو يصلي بأصحابه المغرب وصوته يخرج من المسجد فسمعته يقرأ {والطور} – إلى قوله– {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} فكأنما صـدع قلبي حين سـمعته، ولم أكن أسـلمت يومئذ، فأسـلمت خوفاً من نزول العذاب ما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما توعد تعالى كفار قريش ومن كان على طريقتهم من سائر من كذب رسول الله صـلى الله عليه وسلم أنهم سيصيبهم ما أصـاب غيرهم من مكذبي الأمم، المنبه على ذكرهم في السـورة قبل، ثم أشـار سـبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله: {فويل

للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون} [الذاريات: 60] أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه- والعياذ به سبحانه من سخطه وأليم عذابه- فقال تعالى: {والطور}- إلى قوله- {إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع} ثم أومأ سبحانه إلى مستحقيه ومستوجبيه فقال {فويل يومئذ للمكذبين} ثم ذكر ما يعنفون به ويوبخون على ما سلف منهم من نسبته عليه الصلاة والسلام إلى السحر فقال تعالى {ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون} [سبأ: 42] {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} ثم أعقب بذكر حال المؤمنين المستجيبين، ثم ذكر إثر إعلامه بحال الفريقين- نعمته على نبيه عليه الصلاة والسلام وعصمته ووقايته مما يقول المفترون فقال تعالى {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} ثم جرت الآي على توبيخهم في مقالتهم ووهن انتقالاتهم، فمرة يقولون: كاهن، ومرة يقولون: مجنون، ومرة يقولون: شاعر يترقب موته. فوبخهم على ذلك كله وبين كذبهم وأرغمهم وأسقط ما بأيديهم بقوله {فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين} وهذا هو المسقط لما تقولوه أولاً وآخراً، وهذا الذي لم يجدوا عنه جواباً، ورضوا بالسيف والجلاء، لم يتعرضوا لتعاطي معارضته، وهذا هو الوارد في قوله تعالى في صدر سورة البقرة {وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله} [البقرة: 23] الآيات، فما نطقوا في جوابه ببنت شفة {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله} [الإسراء: 88] فتبارك من جعله آية باهرة وحجة قاهرة- انتهى.

ولما أثبت وقوع العذاب، تشـوفت نفس الموقن إلى وقته، قال مسـتأنفاً لبيان أنه واقع على تلك الصفة: {يوم تمور} أي تتحرك وتضطرب وتجيء وتذهب وتتكفأ تكفأ السفينة وتدور دوران الرحى، ويموج بعضـها في بعض، وتختلف أجزاؤها بعضـها في بعض، ولا تزول عن مكان؛ قال البغوي: والمور يجمع هذه المعاني فهو في اللغة الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضـطراب، قال الرازي: وقيل: تجيء وتذهب كالدخان ثم تضمحل. {السماء} التي هي سقف بيتكم الأرض {موراً *} أي اضطراباً شديداً {وتسير الجبال} أي تنتقل من أمكنتها انتقال السحاب، وحقق معناه بقوله: {سيراً} فتصـير هباء منثوراً وتكون الأرض قاعاً صفصفاً.

▲ تفسير الآيات رقم [11- 16]

{فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11)
الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12)
يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13)
هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14)
أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15)
اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)}

ولما حقق العذاب وبين يومه، بين أهله بقوله مسـبباً عن ذلك: {فويل} هي كلمة يقولونها لمن وقع في الهلاك، ومعناه حلول شر فاضح يكون فيه ندبة

وتفجع {يومئذ} أي يوم إذ يكون ما تقدم ذكره {للمكذبين *} أي العريقين في التكذيب وهم من مات على نسبة الصادقين إلى الكذب.

ولما كان التكذيب قد يكون في محله، بين أن المراد تكذيب ما محله الصدق فقال: {الذين هم} أي من بين الناس بظواهرهم وبواطنهم {في خوض} أي أعمالهم وأقوالهم أعمال الخائض في ماء، فهو لا يدري أين يضـــع رجله.

ولما كان ذلك قد يكون من دهشــة بهم أو غم، نفى ذلك بقوله: {يلعبون *} فاجتمع عليهم أمران موجبان للباطل: الخوض واللعب، فهم بحيث لا يكاد يقع لهم قول ولا فعل في موضـــعه، فلا يؤســـس على بيان أو حجة. ولما صور تكذيبهم بأشنع صورة، بين ويلهم ببيان ظرفه وما يفعل فيه فقال: {يوم يدّعون} أي يدفعون دفعاً عنيفاً بجفوة وغلظة من كل ما يقيمه الله لذلك، ذاهبين ومنتهين {إلى نار جهنم} وهي الطبقة التي تلقاهم بالعبوسة والكراهة والغليظ والزفير، وأكد المعنى وحققه بقوله: {دعاً *} قال البغوي: وذلك أن خزنه جهنم يعلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصـــيهم إلى أقدامهم فم يدفعون دفعاً على وجوههم وزجاً في أقفيتهم، مقولاً لهم تبكيتاً وتوبيخاً: {هذه النار} أي الجسم المحرق المفسد لما أتى عليه، الشـاغل عن اللعب {التي كنتم} بجبلاتكم الفاسدة. ولما كان تكذيبهم بها في أقصـى درجات التكذيب، وكان سـبباً لكل تكذيب، كان كأنه مقصـور عليه فقال مقدماً للظرف إشـارة إلى ذلك، {بها تكذبون *} أي في الدنيا على التجديد والاستمرار.

ولما كانوا يقولون عناداً: إن القرآن بما فيه من الوعيد سحر، سبب عن ذلك الوعيد قوله مبكتاً موبخاً متهكماً: {أفسحر هذا} أي الذي أنتم فيه من العذاب

مع هذا الإحراق الذي تصلون منه {أم أنتم} في منام ونحوه {لا تبصرون *} بالقلوب كما كنتم تقولون في الدنيا {قلوبنا في أكنة} [فصلت: 5] ولا بالأعين كما كنتم تقولون للمذرين {من بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون} [فصلت: 5] أي أنتم عمي عن المخبر عنه مع إحراقه لهم كما كنتم عمياً عن الخبر أي هل تستطيعون أن تقولوا إنكم لا تبصرون المخبر عنه كما كنتم تقولون في الخبر كذباً وفجوراً، ثم يقال لهم بعد هذا التبكيت الذي يقطع بأن جوابهم يكون بأن يقولوا: لا وعزة ربنا ما هو بسحر ولا خيال، بل هو حقيقة، ونحن في غاية الإبصار على سبيل الإخزاء، والامتهان والإذلال: {اصلوها} أي باشروا حرها وقاسوه وواصلوه كما كنتم تواصلون أذى عبادي بما يحرق قلوبهم {فاصبروا} أي فيتسبب عن تكذيبكم في الدنيا ومباشرتكم لها الآن أن يقال لكم: اصبروا على هذا الذي لا طاقة لكم به {أو لا تصبروا} فإنه لا محيص لكم عنها {سواء عليكم} أي الصبر والجزع.

ولما كان المعهود أن الصبر له مزية على الجزع، بين أن ذلك حيث لا تكون المصيبة إلا على وجه الجزاء الواجب وقوعه فقال معللاً: {إنما تجزون} أي يقع جزاؤكم الآن وفيما يأتي على الدوام {ما كنتم} أي دائماً بما هو لكم كالجبلة {تعملون *} مع الأولياء غير مبالين بهم، فكان هذا ثمرة فعلكم بهم.

▲ تفسير الآيات رقم [17- 21]

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17)
فَاكِهِينَ بِمَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (18)
كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19)
مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)
وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (21)}

ولما ذكر ما للمكذبين من العذاب المشـــــار إليه بكلمات القســـم، أتبعه ما لأضـــدادهم من الثواب المنبه عليه أيضـــاً بتلك الكلمات ليتم الخبر ترغيباً وترهيباً، فقال جواباً لمن كأنه قال : فما لمن عاداهم فيك ؟ مؤكداً لما للكفار من التكذيب: {إن المتقين} أي الذين صـارت التقوى لهم صـفة راسـخة {في جنات} أي بساتين دائماً في الدنيا حكماً وفي الآخرة.

ولما كانت البسـاتين ربما يشـقى داخلها أو صـاحبها، نفى هذا بقوله: {ونعيم * } أي نعيم في العاجل، يعني بما هم فيه من الأنس، والآجل بالفعل، وزاد في تحقيق التنعم بقوله : {فاكهين } أي معجبين متلذذين {بما آتاهم ربهم } الذي تولى تربيتهم بعملهم بالطاعات إلى أن أوصلهم إلى ذهاب النعيم، فهو لأن عظمته من عظمته لا يبلغ كنه وصـــــفه . ولما كان المتتعم قد تكون نعمته بعد عذاب، فبين أنهم ليسوا كذلك فقال: {ووقاهم} أي قبل ذلك {ربهم} أي المتفضــل بتربيتهم بكفهم عن المعاصــي والقاذورات {عذاب الجحيم * } أي النار الشديدة التوقد.

ولما كان من باشـر النعمة وجانب النقمة في هناء عظيم، قال مترجماً لذلك على تقدير القول: {كلوا} أي أكلاً هنيئاً {واشربوا} شرباً {هنيئاً} أي لا نقص فيه، وهو صـفة في موضـع المصـدر أي هنأتم بمعنى أن كل ما تتناولونه مأمون العاقبة من التخمة والسقم ونحوها {بما كنتم} أي كوناً راسخاً {تعملون *} أي مجددين له على سبيل الاستمرار حتى كأنه طبع لكم.

ولما كان النعيم لا يتم إلا بأن يكون الإنسـان مخدوماً، نبه عليه بقوله: {متكئين} أي مسـتندين اسـتناد راحة، لأنهم يخدمون فلا حاجة لهم إلى الحركة {على سرر مصفوفة} أي منصوبة واحداً إلى جنب واحد، مستوية كأنها السطور على أحسـن نظام وأبدعه، قال الأصـبهاني: والصـفة: مد الشـيء على الولاء. ولما كان السـرور لا يتم إلا بالتنعم بالنسـاء قال: {وزوجناهم} أي تزويجاً يليق بما لنا من العظمة.

ولما كانت تلك الدار غنية عن الأسباب، فكانوا غنيين عن العقد، قال مشيراً بالباء إلى صرف الفعل عن ظاهره فإنه إذا كان بمعنى النكاح تعدى بنفسه، وتضمين الفعل «قرناهم» أي جعلناهم أزواجاً مقرونين {بحور} أي نساء هن في شدة بياض العين وشدة سوادها واستدارة حدقتها ورقة جفونها في غاية لا توصف {عين *} أي واسعات الأعين في رونق وحسن.

ولما وصـف حال المتقين من أعداء المكذبين وبدأ بهم لشـرفهم، أتبعهم من هو أدنى منهم حالاً لتكون النعمة تامة فقال: {والذين آمنوا} يعني أقروا بالإيمان ولم يبدلوا ولا بالغوا في الأعمال الصـالحة. ولما كان من هؤلاء من لا يتبعه ذريته بسـبب إيمانه لأنه يرتد عنه، عطف على فعلهم تمييزاً لهم

واحترازاً عمن لم يثبت قوله: {واتّبعتهم} أي بما لنا من الفضل الناشئ عما لنا من العظمة {ذرياتهم} الصغار والكبار وإن كثروا، والقرار لأعينهم بالكبار بايمانهم والصغار بإيمانهم آبائهم {بإيمان} أي بسب إيمان حاصل منهم، ولو كان في أدنى درجات الإيمان، ولكنهم ثبتوا عليه إلى أن ماتوا، وذلك هو شرط إتباعهم الذريات، ويجوز أن يراد وهو أقرب: بسبب إيمان الذرية حقيقة إن كانوا كباراً، وحكماً إن كانوا صغاراً، ثم أخبر عن الموصول بقوله: {ألحقنا بهم} أي فضلنا لأجل عمل آبائهم {ذرياتهم} وإن لم يكن للذرية أعمال، لأنه قيل في المعنى: «ولأجل عين ألف عين تكرم» ويلحق بالذرية من النسب الذرية بالسبب وهو المحبة، فإن كان معها آخذ لعلم أو عمل كانت أجدر، فتكون ذرية الإفادة كذرية الولادة، وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم

»المرء مع من أحب» في جواب من سأل عمن يحب القوم ولم يلحق بهم.

ولما كان ربما خيف أن ينقص الآباء بسبب إلحاق ذرياتهم بهم شيئاً من درجاتهم، قال: {وما ألتناهم} أي نقصنا الآباء وحبسنا عنهم {من عملهم} وأكد النفي بقوله: {من شيء} بسبب هذا الإلحاق وكان من فوق رتبتهم من الذين يؤمنون والمؤمنين والمتقين وغيرهم أولى منهم، وإنما فصلهم منهم لأن هؤلاء قد لا يوقنون قبل دخول الجنة العذاب، قال جامعاً للفريقين، أو يقال– ولعله أقرب– أنه لما ذكر اتباع الأدنى للأعلى في الخير فضلاً، أشفقت النفس من أن يكون إتباع في الشر فأجاب تعالى بأنه لا يفعل بقوله: {كل امرئ} أي من الذين آمنوا والمتقين وغيرهم {بما كسب} أي من ولد وغيره

{رهين *} أي مسابق ومخاطر ومطلوب وآخذ شيئاً بدل كسبه وموفي على قدر ما يستحقه ومحتبس به إن كان عاصياً، فمن كان صالحاً كان آخذاً بسبب صلاح ولده لأنه كسبه، ولا يؤخذ به ذلاً وهو حسن في نفسه لأجل الحكم بإيمانه سواء كان حقيقة أو حكماً وكل حسن مرتفع، فلذلك يلتحق بأبيه، وأما الإساءة فقاصرة على صاحبها يؤخذ بها ويرهن بذنبه ولا يؤخذ بذنب غيره، والحاصل أن المعالي التي هي كالحياة تفيض من صاحبها على غيره فتحييه، والمساوئ التي هي كالموت لا يتعدى صاحبها، قال الرازي في اللوامع: اعلم أن الذوات بقاؤها ودوامها ببقاء صورها، فحيث ما كانت الصورة المقومة لها أدوم كانت الذوات بها أقوم، وأن النفوس الإنسانية ذوات وصورها علومها وأخلاقها، فحيث ما كانت العلوم حق اليقين ثم عين اليقين، والأخلاق مقومة على نهج الشرع المبين، كانت النفوس دائمة بدوامها غير مستحيلة، إذ لا تتطرق الاستحالة إلى اليقين والعمل الحق، وغير كائنة ولا فاسدة إذ ليس عن اليقين ولا العلوم الحقيقية من عالم الكون والفساد، وإن لم تبلغ النفس إلى كمال اليقين فتعلقت بدليل صاحبه كما انخرطت في سلكها حتى يخرط الإنسان في سلك محبته، لو أحب أحدكم حجراً لحشر معه، فإن الدين هو الحب في الله والبغض في الله، ولهذا اكتفى الشرع من المكلفين بالإسلام وتسليم وتفويض وتحكيم دون الوقوف على المسائل العويصة بالبراهين الواضحة الصحيحة، وما لم يبلغ الولد حد التكليف واخترم ألحقوا بآبائهم وحكم عليهم بحكم عقائدهم وآرائهم حتى يكون حكم آبائهم جارياً عليهم وحكم القيامة نافذاً فيهم، وأما إذا كانت الصورة

القائمة بالذوات مســـــتحيلة بأن كانت جهلاً وباطلاً ينقص أوله آخره وآخره أوله، كانت ذات النفس لا تنعدم ولا تفنى بل تبقى على حال لا يموت فيها ولا يحي، فإنها لو فنيت لاستراحت ولو بقيت لاستطابت، فهي على استحالة بين الموت والحياة، وهذه الاستحالة لا تكون إلا في أجساد وأبدان {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها} [النساء: 56] انتهى. وهو كما ترى في غاية النفاسة، ويؤيده «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لما قبلها من النفي، أي ما نقصناهم لأنه قد سبق في حكمنا بأن يكون «كل امرئ» قدرنا أن يرتهن بما قد ينقصه {بما كسب} أي لا يضر ما كسب ما كسبه غيره «رهين» أي معوق عن النعيم حتى يأتيه بما يطلق من العمل الصالح.

▲ تفسير الآيات رقم [22– 27]

{وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22)
يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (25)
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (26)
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (27)}

ولما جمعهم في إلحاق الذرية بهم لأنهم من أعظم النعيم، وأمنهم مما قد يخشى من نقصهم بنقصه غيرهم، وعلل ذلك ليكون أرسخ في النفس، أتبعه بما يشاكله فقال: {وأمددناهم} أي آمنوا والمتقين ومن ألحق بهم من ذرياتهم

بما لنا من العظمة زيادة على ما تقدم {بفاكهة} . ولما كانت الفاكهة ظاهرة فيما يعرفونه في الدنيا وإن كان عيش الجنة بجميع الأشـياء تفكها ليس فيه شيء يقصد به حفظ البدن قال: {ولحم مما يشتهون *} ليس فيه شيء منه مما لا يعجبهم غاية الإعجاب.

ولما كان هذا النعيم العظيم المقيم يدعو إلى المعاشرة، بالقرينة العاطرة، بين أن ذلك حالهم اللازمة الظاهرة، من الخصـال اللائقة الطاهرة، فقال: {يتنازعون} أي يشربون متجاذبين مجاذبة الملاعبة لفرط المحبة والسرور وتحلية المصاحبة {فيها كأساً} أي خمراً من رقة حاشيتها تكاد أن لا ترى في كأسها. ولما كان في خمر الدنيا غوائل نفاها عنها فقال: {لا لغو} أي سقط مما يضر ولا ينفع {فيها} أي في تنازعها ولا بسببها لأنها لا تذهب بعقولهم ولا يتكلمون إلا بالحسن الجميل {ولا تأثيم *} أي ولا شيء فيها مما يلحق شرَّابها إثما ولا يسوغ نسبه.

ولما كانت المعاطاة لا يكمل بسطها ولا يعظم إلا بخدم وسقاة قال: {ويطوف عليهم} أي بالكؤوس وغيرها من أنواع التحف {غلمان} ولما كان أحب ما إلى الإنسان ما يختص به قال: {لهم} ولم يضفهم لئلا يظن أنهم الذين كانوا يخدمونهم في الدنيا فيشفق كل من خدم أحد في الدنيا بقول أو فعل أن يكون خادماً له في الجنة فيحزن بكونه لا يزال تابعاً، وأفاد التنكير أن كل من دخل الجنة وجد له خدماً لم يعرفهم قبل ذلك {كأنهم} في بياضهم وشدة صفائهم {لؤلؤ مكنون *} أي مصون في الصدف لم تغيره العوارض، هذا حال الخادم فما ظنك بالمخدوم.

ولما كان ألذ ما إلى الحبيب وأعظم ما يكون من أربه ذكر محبوبه والثناء عليه بما منّ به، قال تعالى شـارحاً لذلك عاطفاً على ما تقديره: فأقبلوا على تعاطي ما ذكر من النعم: {وأقبل بعضـهم} لما ازدهاهم من السرور، وراقهم من اللذة والحبور {على بعض يتساءلون *} أي يسأل بعضـهم بعضـاً عن السـبب الموصـل له إلى هذا النعيم الذي لا يقدر مخلوق على وصـفه حق وصفه، ثم استأنف شرح ذلك بقوله: {قالوا} أي قال كل منهم مؤكداً استلذاذاً بما أداهم إلى ما هم فيه لأنه لا يكاد يصـدق، مسـندين النعمة بفعل الكون إلى الله الذي جبلهم جبلة خير، مسـقطين الجار إشـارة إلى دوام خوفهم، تنبيهاً على أن الخوف الحامل على الكف عن المعاصـي يشترط فيه الدوام، بخلاف الرجاء الحامل على الطاعات، فإنه يكفي فيه ما تيسـر كما تأتي الإشارة إليه بإثبات الجار: {إنا كنا قبل} أي في دار العمل {في أهلنا} على ما لهم من العدد والعدد والنعمة والسـعة، ولنا بهم من جوالب اللذة والدواعي إلى اللعب {مشـفقين *} أي عريقين في الخوف من الله لا يلهينا عنه شـيء مع لزومنا لما نقدر عليه من طاعته لعلمنا بأنا لا نقدره لما له من العظمة والجلال والكبرياء والكمال حق قدره، وأنه لو واخذنا بأصـغر ذنوبنا أهلكنا، قال الرازي: والإشـفاق: دوام الحذر مقروناً بالترحم، وهو أن يشـفق على النفس قبل أن تجمح إلى العناد، وله أقسـام: إشـفاق على العمل أن يصـير إلى الضياع، وإشفاق على الخليقة لمعرفة مقاديرها، وإشفاق على الوقت أن يشـوبه تفرق وعلى القلب أن يمازجه عارض وعلى النفس أن يداخلها- انتهى.

ولما حكى عنهم سبحانه أنهم أثبتوا لأنفسهم عملاً تدريباً لمن أريدت سعادته، فكان بحيث يظن أنهم رأوه هو الســـــبب لما وصـــــلوا إليه، قالوا نافين لهذا الظن، مبينين أن ما هم فيه إنما هو ابتداء تفضـــــل من الله تعالى لأن إشــفاقهم منه ســبحانه لكيلا يعتمد الإنســـان على شـــيء من عمله فلا يزال معظماً لربه خائفاً منه: {فمنّ الله} الذي له جميع الكمال بسـبب إشـفاقنا منه {علينا} بما يناســـب كماله فأمّننا {ووقانا} أي وجنبنا بما ســترنا به {عذاب السموم *} أي الحر النافذ في المسام نفوذ السم.

▲ تفسير الآيات رقم [28- 34]

{إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (29)

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30)

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31)

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (32)

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)}

ولما ذكروا إشـفاقهم، بينوه مؤكدين أيضـاً لمثل ذلك بقولهم: {إنا كنا} أي بما طبعنا عليه وهيئنا له . ولما كان الدعاء بمعنى فعل العبادة، وكانت تقع في بعض الزمان، أثبت الجار إشـــارة إلى ذلك مع إســـقاطه قبل هذا في الدعاء بالقوة إشـــارة إلى أن التحلي بالفضـــائل يرضـــى منه باليســـر، والتخلي عن الرذائل لا بد فيه من البراءة عن كل قليل وكثير فقيل : {من قبل} أي في

الدنيا {ندعوه} أي نســـأله ونعبده بالفعل، وأما خوفنا بالقوة فقد كان في كل حركة وسكنة، ثم عللوا دعاءهم إياه مؤكدين لأن إنعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره، فهو مما يعجب منه غاية العجب فقالوا : {إنه هو} أي وحده {البر} الواســـع الجود الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة، لأنه لا ينقصــه إعطاء ولا يزيده منع، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفســه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس، فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوســع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شــيء من قضــائه {الرحيم *} المكرم لمن أراد من عباده بإقامته فيما يرضـــاه من طاعته، ثم بإفضاله عليه وإن قصر في خدمته.

ولما كان هذا مع تشـــويقه إلى الجنة والأعمال الموصـــله إليها وعظاً يرقق القلوب ويجلي الكروب، سـبب عنه قوله: {فذكر} أي جدد التذكير بمثل هذا لكل من يرجو خيره ودم على ذلك، وسماه تذكيراً لأنه مما يعلمه الإنسان إذا أمعن النظر من نفســـه أو من الآفاق، وعلل التذكير بقوله: {فما أنت} أي وأنت أشرف الناس عنصراً وأكملهم نفساً وأزكاهم خلائق هم بها معترفون لك قبل النبوة {بنعمت ربك} أي بسـبب ما أنعم به عليك المحسـن إليك من هذا الناموس الأعظم بعد تأهيلك له بما هيأك به من رجاحة العقل وعلو الهمة وكرم الفعال وجود الكف وطهارة الأخلاق وشـرف النسـب، وأكد النفي بقوله: {بكاهن} أي تقول كلاماً- مع كونه ســجعاً متكلفاً- أكثره فارغ وتحكم على المغيبات بما يقع خلاف بعضـه. ولما كان للكاهن والمجنون اتصـال بالجن، أتبع ذلك قوله : {ولا مجنون *} أي تقول كلاماً لا نظام له مع الإخبار

ببعض المغيبات، فلا يفترك قولهم هذا عن التذكير فإنه قول باطل لا تلحقك به معرة أصــلاً؛ وعما قليل يكون عيباً لهم لا يغســله عنهم إلا اتباعهم لك، فمن اتبعك منهم غسل عاره، ومن استمر على عناده استمر تبابه وخساره.

ولما كانت نسـبته صـلى الله عليه وسـلم فيما أتاهم به من هذا القرآن الآمر بالحكمة إلى أنه أتى به عن الجن الذين طبعهم الفســـاد مما لا ينبغي أن يتخيله أحد فضــلاً أن يقوله له صــلى الله عليه وســلم، ولا يكاد يصــدق أن أحداً يرميه به، فكان في طيه ســـؤال تقريع وتوبيخ، نبه على ذلك بالعطف على ما تقديره: أيقولون هذا القول البعيد من أقوال أهل العقول: {أم يقولون} ما هو أعجب في مجرد قوله فضــلاً عن تكريره، فأم معادلة للاسـتفهام قبلها لا مقطوعة، وكذا جميع ما بعدها وهو معنى ما نقله البغوي عن الخليل أنه قال: ما في سورة الطور من ذكر «أم» كله استفهام وليس بعطف.

{شـاعر} يقول كلاماً موزوناً بالقصـد، يلزمه التكلف لذلك فيغلب إلزام الوزن قائله حتى يجعل اللفظ هو الأصــل ويجعل المعنى تابعاً له، فيأتي كثير من كلامه ناقص المعاني هلهل النســـج مغلوباً فيه على أمره معترفاً إذا وقف عليه بتقصيره متعذراً مما زانه بهزعم من أوزانه، وساق سبحانه هذا وكذا ما بعده من الأقســام على طريق الاســتفهام مع أن نســبتها إليهم محققة، تنبيهاً على أن مثل هذا لا يقوله عاقل، وإن قاله أحد لم يكد الناقل عنه يصـــدق: {نتربص} أي ننتظر {به ريب المنون *} أي حوادث الدهر من الموت وغيره القاطعة، من المن وهو القطع.

ولما كان كأنه قيل لهم: إنهم ليقولون ذلك، قال معلماً جوابهم: {قل تربصوا} ولم يعرج على محاجتهم في قولهم هذا تنبيهاً على أنه من السقوط بمنزلة لا يحتاج معها إلى رد مجادلة، ثم سبب عن أمره لهم بالتربص قوله: {فإني معكم} وأكده تنبيهاً على أنه يرجو الفرح بمصيبتهم كما يرجون الفرح بمصيبته وإن كانت كثرتهم وقوتهم عندهم مانعة من مثل هذا التربص {من المتربصين *} أي العريقين في التربص وإن ظننتم خلاف ذلك، وأشار بالمعية إلى أنه مساو لهم في ذلك وإن ظنوا لكثرتهم وقوتهم ووحدته وضعفه أن الأمر خلاف ذلك، قال القشيري: جاء في التفسير أن جميعهم– أي الذي تربصوا به– ماتوا، قال: ولا ينبغي لأحد أن يؤمل نفاق سوقه بموت أحد لتنتهي النوبة إليه فقل من تكون هذه صفته إلا سبقته المنية، ولا يدرك ما تمناه من الأمنية.

ولما كان قولهم هذا مما لا يقال أصلاً وإن قيل على بعده كان قوله كأنه على جهة سبق اللسان أو نحو ذلك، نبه عليه بمعادلة ما تقديره: أقالوا ذلك ذهولاً: {أم تأمرهم} أي نزين لهم تزييناً يصير مآلهم إليه من الانبعاث كالأمر {أحلامهم} أي عقولهم التي يزعمون أنهم اختصوا بجودتها دون الناس بحيث إنه كان يقال فيهم: أولوا الأحلام والنهي {بهذا} أي وهم يعتقدون صحته وأنه العدل السواء لأنه متقيدون بالأحلام والنهي على ما فيه من الفساد بالتناقض بعد اختلال كل قول منه على حدته كما تقدم بيانه، وهو توبيخ عظيم بالإشارة إلى أنه ليست لهم عقول أصلاً لقولهم هذا، فإن الكاهن شرطه أن يكون في غاية المعرفة عندهم حتى أنهم يجعلونه حكماً وربما عبدوه،

والمجنون لا يصلح لصالحة لأنه لا يعقل، والشاعر بعيد الأمر بوزن الكلام وكثرته من سجع الكاهن وغيره وكلام المجنون: {أم هم} بظواهرهم وبواطنهم {قوم} أي ذوو قوة على ما يحاولونه فهم لذلك {طاغون} أي مجازون للحدود، وذلك عادة لهم بما أفهمه الوصف، فهم لذلك لا يبالون بالعناد الظاهر في مخالفته لما تأمر به الأحلام والنهى، ولا يقوله إلا الطغاة السفهاء مع ظهور الحق لهم، فهم يقولون الكلام المتناقض غير مبالين بأحد ولا مستحيين من أن ينسبوا إلى العدوان والمبالغة في العصيان، والآية من الاحتباك: ذكر الأحلام أولاً دليلاً على ضدها ثانياً، والطغيان ثانياً على ضده «العدل السواء» أولاً، وسره أن ما ذكر أشد تنفيراً من السوء وأعظم تقبيحاً له وتحذيراً منه {أم يقولون} ما هو أفحش عاراً من التناقض: {تقوله} أي تكلف قوله من عند نفسه كذباً وليس بشعر ولا كهانة ولا جنون، وهم على كثرتهم وإلمام بعضهم بالعلم وعرافة آخرين في الشعر والخطب والترسل والسجع يعجزونه عن مثله بل عن مثل شيء منه.

ولما كان الكلام حقيقة في النفس، وكانوا يعلمون بطلان جميع ما يقولونه من ذلك، كان التقدير: لم يقولوا شيئاً من ذلك حقيقة واعتقاداً {بل لا يؤمنون *} أي لا يقرون بالحق مع علمهم ببطلان قولهم وتناقضه عناداً منهم لا تكذيباً في الباطن.

ولما كان هذا القول أظهر بطلاناً من كل ما قالوه لأن تكذيبهم لهم على تقدير كذبه- على زعمهم- غير موقوف على شيء خارج عن القوة، طالبهم بالمعارضة لأنهم إذا عارضوه بمثله انفصل النزاع، ولذلك سبب عما مضى

قوله تكذيباً لهم في قولهم هذا الذي أظهروه بألســـنتهم يوقفون به غيرهم عن الخير: {فليأتوا} أي على تقدير أرادوه {بحديث} أي كلام مفرق مجدد إتيانه مع الأوقات لا تكلفهم أن يأتوا به جملة {مثله} أي القرآن في البلاغة وصحة المعاني والإخبار بالمغيبات مما كان أو يكون على ما هي عليه والحكم.

ولما كان المقصـــود هنا مطلق التعجيز للمكذبين لا بقيد الاجتماع كما في ســـبحان لأن نزول هذه أوائل ما نزل، تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سـوراً أو آيات أو دون ذلك، تحدث وتتجدد شـيئاً في أثر شـــيء– بما أشــــار إليه التعبير بالحدوث، ولذلك أعراه عن تظاهرهم بالاجتماع ودعاء المستطاع، ولكونهم كاذبين في جزمهم بنسبته إلى التقول وغيره، أشــار إلى ذلك بقوله مقرعاً لهم إلهاباً إلى الخوض في المعارضــة: {إن كانوا} أي كوناً هم راسخون فيه {صادقين *} أي في أنه تقوله من عند نفسه شيئاً فشيئاً، كوناً هم عريقون فيه كما يزعمون سواء ادعوا أنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو غير ذلك، لأن العادة تحيل أن يأتي واحد من قوم وهو مســاوٍ لهم بما لا يقدرون كلهم على مثله، والعاقل لا يجزم بشـــيء إلا وهو عالم به، ويلزم من علمهم بذلك قدرتهم على مثل ما يأتي به، فإنه صلى الله عليه وسلم مثلهم في الفصاحة والبلد والنسب، وبعضهم يزيد عليه بالكتابة وقول الشـــعر ومخالطة العلماء، ومزاولة الخطب والرســـائل وغير ذلك، فلا يقدر على ما يعجزون عنه إلا بتأييد إلهي، وهو المراد من تكذيبهم، وقد علم من هذا ومما تقدم من نحوه مفرقاً في الســـور التي فيها مثله أن المتحدى به في كل ســـورة غير المتحدى به في الأخرى– والله

الهادي، وهذه الأقســـام الماضـــية من تكذيبهم تتأتى أن تكون على تقدير الاعتقاد للإله على ما هو عليه من صـــفات الكمال فأتباعها قســـماً على تقدير التعطيل، وإذا لم يكن إله لم يكن رســـول فيأتي التكذيب، ثم أتبع ذلك قســـماً آخر هو على تقدير إثبات الإله لكن مع الضـــعف بالشـــركة، ولكون الشـــركة تارة تكون من المتكلم وتارة من غيره، قدم منها ما للمتكلم على زعمه، وقدم تقدير شـــركته بالخلق ثم بضـــبط الخزائن ثم بالكتابة ثم بسـماع الأسرار ثم بضعف السعة بالرضا بالصنف الأردأ.

▲ تفسير الآيات رقم [35- 38]

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36)
أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (37)
أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)}

ولما مضـــت فضـــيحتهم بالتحدي، وكانت عندهم فضـــيحة التناقض دون فضـــيحة المعارضـــة، فكانوا يقدمونها عليها، فلم يحدث أحد منهم يوماً من الأيام بشـــيء مما يعارضـــه به علماً منهم بأنهم يصـيرون بذلك إلى خزي لا يمكن أن يغســـل عاره كما صـــار مســـيلمة، لأنهم كانوا أعقل العرب وكان التقدير كما هدى إليه السياق: فإنك مستوٍ معهم بالنسبة إلى إيجاد الله لكم، هو سبحانه خالقهم كما أنه خالقك، ولا خصوصية لك منه على زعمهم: أهو خالقهم كما هو خالقك فيلزمهم أن يأتوا بمثل ما تأتي به، وكان ذلك على تقدير إقرارهم بالله وادعائهم لكذبه صلى الله عليه وسلم، عادله سبحانه تبكيتاً

لهم وإظهاراً لفضائح هي أشنع مما فروا منه من المعارضة بقوله على تقدير أن يكونوا منكرين للإله أو مدعين لأن يكونوا آلهة: {أم خلقوا} أي وقع خلقهم على هذه الكيفية المتقنة {من غير شيء} فيكونوا مخالفين لصريح العقل إذ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم كتعلقه بالمخلوق ليسلم لهم أنك تأتي بما لا يقدرون على معارضته لأنك أقوى منهم بكونك مستنداً إلى خالق وهم ليسوا مستندين إلى شيء أو ليكونوا لذلك أقوى منك وأعلى، فيكون لهم التكبر عليك {أم هم الخالقون *} أي الذين لهم هذا الوصف فيكونون قد خلقوا أنفسهم ليكونوا بذلك شركاء فيكون الخالق والمخلوق واحداً، وهو مثل القسم الذي قبله في عدم الاستناد إلى شيء أو يكون ثبوت هذا الوصف لهم موجباً لأن يكونوا على ثقة مما يقولون وللتكبر عليك، فإن ادعوا ذلك حكم أدنى الخلق بجنونهم؛ {أم خلقوا} أي على وجه الشركة {السماوات والأرض} فهم لذلك عالمون بما فيها على وجه الإحاطة واليقين حتى علموا أنك تقولته ليصير لهم رده والتهكم عليه.

ولما كان التقدير: لم يكن شيء من ذلك ليكون لهم شبهة في الكلام فيك، عطف عليه قوله: {بل لا يوقنون *} أي ليس لهم نوع يقين ليسكنوا إلى شيء واحد لكونه الحق أو ليعلموا أن هذه الملازم الفاضحة تلزمهم فيكفوا عن أمثالهم {أم عندهم} أي خاصة دون غيرهم {خزائن} ولما كان ذكر الرحمة لا يقتضيه مقصود السورة الذي هو العذاب، لم تذكر كما في ص وسبحان فقيل: {ربك} المحسن إليك بإرسالك بهذا الحديث فيعلموا أن هذا الذي أثبت به ليس من قوله لأنه لا تصرف له في الخزائن إلا بهم، فيصح

قولهم: إنك تقولته وحينئذ يلزمهم فضــائح لا آخر لها، منها أن يأتوا بحديث مثله بل أحسن منه من تلك الخزائن {أم هم} لا غيرهم {المسيطرون *} أي الرقباء الحافظون والجبارون والمســلطون الرؤســاء الحكماء الكتبة، ليكونوا ضــابطين للأشــياء كلها كما هو شــأن كتّاب الســر عند الملوك فيعلموا أنك تقولت هذا الذكر لأنهم لم يكتبوا به إليك {أم لهم ســلّم} يصــعدون به إلى الســماء {يســتمعون} أي يتعمدون الســمع لكل ما يكون فيها ومنها {فيه} أي في ذلك السلم وبسببه كما يكون بعض من يحضر مجالس الملوك في الدنيا ويعلم ما يقع فيها ليكونوا ضــــابطين لما يأتي من الملك فيعلموا أن ما قالوه فيك حق ولما كان من يكون هكذا متمكناً من الإتيان منها بالعجائب، ســبب عنه قوله: {فليأت مســتمعهم} إن ادعوا ذلك {بســلطان مبين *} أي حجة قاهرة بينة في نفسها، موضحة لأنها من السماء على صحة ما يرمونك به.

▲ تفسير الآيات رقم [39– 43]

{أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)}

ولما كان ما مضــى على تقدير وجود الإله مع الشــركة، وكان ادعاؤهم الولد عظيماً جداً لدلالته على حاجته وضــــعفه، وكان جعله بنات أعظم لأنه دال مع ضــعفه على ســفهه، دل على اســتعظامه بالالتفات إلى خطابهم بعذابهم فقال: {أم له البنات} أي كما ادعيتم {ولكم} أي خاصــة {البنون *} لتكونوا أقوى منه فتكذبوا رســوله محمداً صــلى الله عليه وســلم وتردوا قوله من غير

حجة فتكونوا آمنين من عذاب يأتيكم منه لضعفه وقوتكم، وهذه الأقسام كلها على تقدير التكذيب، وهي هنا بذكر ما على تقدير التصديق، وإنما وقع الرد فيها لعارض عرض.

ولما كان المكذب بشيء قد يكون معترفاً بأنه من عند إله، وأن إلهه متصف بجميع صفات الكمال فلا شريك له، وإنما تكذيبه لقادح لا يقدر عليه، وكرب رمى بجميع أنكاده إليه، أعرض عنهم التفاتاً إلى الأسلوب الأول فقال مخاطباً له صلى الله عليه وسلم تنويهاً بذكره ورفعاً لعظيم قدره وتسلية لما يعلم من نفسه الشريفة البراءة منه: {أم تسألهم} أي أيها الطاهر الشيم البعيد عن مواضع التهم {أجراً} على إبلاغ ما أتيتهم به {فهم من مغرم} ولو قل، والمغرم: التزام ما لا يجب {مثقلون *} أي حمل عليهم حامل بذلك ثقلاً فهم لذلك يكذبون من كان سبباً في هذا الثقل بغير مستند ليستريحوا مما جره لهم من الثقل.

ولما كان من يدعي الانفراد بشيء يحسد من يدعي مشاركته فيه قال: {أم عندهم} أي خاصة بهم {الغيب} أي علمه {فهم يكتبون *} أي يجددون للناس كتابة جميع ما غابة عنهم مما ينفعهم ويضرهم حتى يحسدونك فيما شاركتهم به منه، فيردوه لذلك، وينسبوك إلى ما نسبوك إليه مما يعلم كل أحد ترافعك عنه وبعدك منه {أم يريدون} بهذا القول الذي يرمونك به {كيداً} أي مكراً أو ضرراً عظيماً يطفئون به نور الله بزعمهم مع علمهم بأنك صادق فيه، فهم بسبب إرادتهم ذلك هكذا كان الأصل، ولكنه قال تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف: {فالذين كفروا} أي ستروا الأجلة تارة عناداً وتارة

بالإعراض عن تأملها {هم} أي خاصة {المكيدون *} أي يختص وبال الكيد بلزومه لهم وقطعه لدابرهم لأن من كان الإله عليه كان خاسراً، وأقرب مآلهم من الكيد الظاهر في بدر عن انتهاء ســـنين عدتها عدة ما هنا من «أم» وهي خمسة عشرة مرة لأن بدراً كانت في الثانية من الهجرة، وهي الخامسة عشــرة من النبوة، فقد ســبب الله فيها من الأســباب ما أوجب ســعيهم إلى هلاكهم بأمور خارقة للعادة، فلو كانت لهم بصــائر لكفتهم في الهداية، والرد عن الضلالة والغواية.

ولما كان التقدير : أكذلك الأمر عادله بقوله : {أم لهم إله} يمنعهم من التصديق بكتابنا، أو يستندون إليه للأمان من عذابنا {غير الله} الذي أحاط بجميع صـــفات الكمال، فلا يمكن بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير أن يكون معه إله، ولذلك وصــل به قوله: {ســبحان الله} أي الملك الأعظم الذي تعالى أن يداني جنابه شـــائبة نقص {عما يشـــركون} من الأصنام وغيرها، وأخر سبحانه هذا القسم وهو من الشركة لكن بالغير لأنه آت على تقدير التصديق للرسول صلى ولأنه دينهم الذي أوقفهم عن الهدى، فأوقعهم في الردى، ليحتم بنفســه والتنزيه عن الإقســام فيحصـــل به غاية القصد والمرام.

والحاصــل أنه قســم به ســبحانه حالهم في ردهم القرآن إلى التكذيب وغيره، ولما كان التكذيب- وهو النســبة إلى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع- إما في الإرسال، وإما في المعاني، وما وقع به الإرسال إما لنقص في الرسول وإما النقص في المرسل، والذي في الرسول إما أن يكون لأمر خارج عنه أو

لأمر داخل فيه، ولما كان الخارج قد يكون معه نقص دخل بذاته، ولما كان ذلك قد يكون فيه ما يمدح به ولو من وجه، وهو الكهانة بدأ بها، وأتبعه الداخل لذلك بادئاً بما قد يمدح به وهو الشعر. ولما كان القول بجمع الكهانة والشعر والجنون في شخص واحد على غاية من ظهور التناقص لا يخفى، أتبعها الرمي بالتهكم على عقولهم. ولما كان الكذب في الرمي بالتقول قد يخفى، أتبعه دليله بالعجز عن المعارضة. ولما قسم ما رموا به الرسول، أتبعهم ما ألزمهم به في المرسل، ولما كان ذلك إما أن يكون بالتعطيل أو لا، وكان التعطيل أشد، بدأ به وهو الخلق من غير شيء، ولما كان النقص مع الإقرار بالوجود إما أن يكون بالشركة أولاً، وكان بالشركة إما أن يكون المكذب هو المشارك أولاً، وكانت الشركة المكذب أقعد في التكذيب بدأبها، ولما كانت شركة المكذب إما أن تكون في الخلق أو لا، وكان الأول إما أن يكون بخلق النفس أو الغير، وكانت الشركة بخلق النفس ألصق، بدأ بها قوله: {أم هم الخالقون} ولما كانت الشركة بغير الخلق إما أن يكون بضبط الحواس أو لا، وكان الثاني إما أن يكون بضبط الكتاب فيها وإليه الإشارة بالمسيطر، أو بضبط ما يؤمر به فيها وإليه الإشارة بالسلم أو بسفه صاحب الخزائن لرضاه بالبنات، وكان كل قسم أشد مما بعده رتبه هكذا. ولما انتهى ما يرجع إلى التكذيب، أتبعه الرد لا للتكذيب بل لأمر آخر، ولما كان ذلك الأمر إما من الآتي أو من المأتي إليه أو من غيرهما، كان ما من الآتي ألصق بدأ به وهو المغرم، ولما كان ما من المأتي إليه إما لحسد أو غيره، وكان أمر الحسد أشد، بدأ به وهو المشاركة في الأبناء بما يكون به الفخر

والرئاســـــة وهو علم الغيب- الناظر بوجه للكهانة المبدوء بها في قســـم التكذيب، وآخر ما من الغير وهو الشريك المانع لهم من القبول، وخلطه بهذا القسـم مع كونه قسـيماً لما فرض فيه المكذب مشـاركاً لخلوه عما قارن تلك الأقسام من التكذيب، هذا تمام القول في إبطال ما لزمهم فيما تقولوه في أمر القرآن، وقد تضمن ما ترى من تأصيله وتقسيمه وتفصيله من بيان مقدورات الله وعجائب مصـــنوعاته ما ألزمهم حتماً التوحيد الملزم بتصـــديق الرســـالة والإذعان للحق مع ما له من الإعجاز في ترتيبه ونظمه وتهذيبه وتســـهيله وتقريبه مجلوا أســـلوبه العظيم بألفاظ هي الدر النظيم، ومعان علت عن لاحق بغريزة أو تعليم، يكاد لها أثبت القلوب يهيم فيطير، وأبلغ البلغاء في افنان روحها يتدله ويحير، فكان ذلك كما قال جبير بن مطعم رضـــــي الله عنه كما روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه رضي الله عنهم أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قرأ في المغرب بالطور، وقال البخاري في التفسـير: فلما بلغ هذه الآية {أم خلقوا من غير شـيء أم هم الخالقون} {أم خلقوا الســـماوات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون} كاد قلبي يطير، وقال ابن ماجه: فلما سمعه يقرأ {أم من غير شــيء أم هم الخالقون}- إلى قوله- {فليأت مسـتمعهم بسـلطان مبين} كاد قلبي يطير.

وسبق في أول السورة ما ذكره البغوي من هذا الحديث.

▲ تفسير الآيات رقم [44- 49]

{وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (44)
فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45)
يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (46)
وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47)
وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48)
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49)}

ولما كان التقدير تسكيناً لقلب من يريد إجابتهم إلى الآيات المقترحات طمعاً في إيمانهم: فلقد تلونا عليهم في هذه السورة وغيرها من الآيات، وخلونا من المعجزات البينات، وأتينا من تناقضهم في هذه التقسيمات، بما يهد الجبال الشامخات، وبينا من فضائحهم بحسن سوقها وحلاوة ذوقها، وصحة معانيها وإحكام مبانيها، ما يزلزل الراسيات، ويحل العزمات، ويفرج الأزمات، ويصد ذوي المروات عن أمثال هذه النقائص الفاضحات، لما لها من الأدلة الواضحات، ولكنهم لما ألزمناهم به من العكس لا يؤمنون، وكدناهم بما أعمينا من بصائرهم فهم لا يعلمون أنهم المكيدون، عطف عليه قوله: {وإن يروا} أي معاينة {كسفاً} قطعة، وقيل: قطعاً واحدتها كسفة مثل سدرة وسدر {من السماء} نهاراً جهاراً {ساقطاً يقولوا} لدداً وتجلداً في البغي إصراراً، وتعلقهم بما أمكنهم من الشبه تخييلاً على العقول وإيقافاً لذوي الآراء والفهوم دأب الأصيل في نصر الباطل ومكابرة الحق لما لهم من العراقة في عمى القلوب بما لنا من القدرة على صرفهم عن وجوه الأمر: هذا {سحاب} فإن

قيل لهم: هو مخالف للسحاب بصلابته، قالوا: {مركوم *} أي تراكم بعضه على بعض فتصلب، ولذلك سبب عن هذا الحال الدال على أنهم وصلوا في عمى البصائر إلى أنه لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون، قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعه: {فذرهم} أي اتركهم على شر أحوالهم {حتى يلاقوا} سعياً بسوء أعمالهم {يومهم} كما أنه هو يسعى إليهم لاستحقاقهم لما فيه {الذي فيه} لا في غيره لأن ما حكمنا به لا يتقدم ولا يتأخر {يصعقون *} بالموت من شدة الأهوال وعظيم الزلزال كما صعق بنو إسرائيل في الطور، ولكنا لانقيمهم كما أقمنا أولئك إلا عند النفخ في الصور لنحشرهم إلى الحساب الذي يكذبون به، والظاهر أن هذا اليوم يوم بدر فإنهم كانوا قاطعين بالنصرة فيها فما أغنى أحد منهم عن أحد شيئاً كما قال أبو سفيان بن الحارث: ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا. {يوم لا يغني} أي بوجه من الوجوه {عنهم كيدهم} الذي يرمونه بهذه الأقوال المتناقضة {شيئاً} أي من الإغناء في دفع شيء يكرهونه من الموت ولا غيره كما يظنون أنه يغني عنهم في غير ذلك من أحوال هذه الدار بتثبيط الناس عن اتباع القرآن بما يصفونه به من البهتان {ولا هم ينصرون *} أي لا يتجدد لهم نصر من أحد ما في ساعة ما.

ولما أفهم هذا الكلام السابق أن التقدير: فإن لكل ظالم في ذلك اليوم عذاباً لا يحيط به الوصف، فإن الإصعاق من أشد ما يكون من العذاب، عطف عليه قوله مؤكداً لما لهم من الإنكار أي ينصر عليهم المؤمنون وهم من الكثرة والقوة بحيث لا مطمع فيهم لأحد لا سيما لمن هم مثل في الضعف

والقلة {وإن} وكان الأصل لهم، ولكنه أظهر تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال: {للذين ظلموا} أي أوقعوا الأشـــياء في غير مواقعها كما يقولونه في القرآن، ويفعلونه من العصـــيان ويعتقدون من الشـــرك والبهتان {عذاباً دون ذلك} أي غير عذاب ذلك اليوم الصعب المرير، أو أدنى رتبة منه، إن كان المراد بالعصـــــق ما يكون بعد البعث فبعذاب البرزخ في القبور، وإن كان المراد به الموت فيما يلقونه في الدنيا من عذابي بواسطتكم مثل تحيزكم إلى الأنصــــار في دار الهجرة ومعدن النصـــرة وصـــيرورتكم في القوة بحيث تناصبونهم الحرب، وتعاطونهم الطعن والضـرب، فتكونوا بعد أن كنتم طوع أيديهم قذى في أعينهم وشجاً في حلوقهم ودحضاً لأقدامهم ونقضاً لإبرامهم، ومثل القحط الذي حصـل لهم والسـرايا التي لقيتموها فيها مثل سـرية حمزة أسـد الله وأسـد رسـوله، وعبيدة بن الحارث وعبيد الله بن جحش التي كانت مقدمة لغزوة بدر.

ولما كان بعضـهم يبصـر هذا مثل عتبة بن ربيعة والوليد بن مغيرة والنضـر بن الحارث ويقولون: والله ما هو شـــاعر ولا كاهن ولا ســاحر ولا مجنون، وليكونن لقوله الذي يقول نبأ، قال: {ولكن أكثرهم} بســـبب ما يرون من كثرتهم وحســـن حالهم في الدنيا وقوتهم {لا يعلمون *} أي يتجدد لهم علم بتقويتكم عليهم لأنهم لا علم لهم أصلاً حتى يروا ذلك معاينة.

ولما كان العلم المحيط من الملك القاهر أعظم مســـل للولي وأكبر مخيف للعدو، قال عاطفاً على {فذرهم} أو على ما تقديره: فكن أنت العلماء بذلك ليكون فيه لك أعظم تسلية: {واصبر} أي أوجد هذه الحقيقة لتصبر على ما

أنت فيه من أداء الرســـالة وما لها من الكلف من أذى الناس وغيره ولكونه في مقام الإعراض عن الكفار وكون إعراضه عنهم أصعب عليه من مقاساة إنذاره وإن نشأ عنها تكذيبهم واستهزاؤهم، اشتدت العناية هنا بالصبر فقدم، وأيضـــاً فإن الإعراض عنهم مقتض لعدهم فانين، وذلك هو مقام الجمع، والجمع لا يصلح إلا بالفرق، فلذلك قدم الأمر بالصبر، وذكر الحكم إشارة إلى أنه متمكن في مقام الفرق كما أنه عريق في مقام الجمع بخلاف المدثر، فإن سياقها للإنذار الناشئ عنه غاية الأذى فاشتدت العناية هناك بتقديم ذكر الإله نظراً إلى الفناء عن الفانين وإن كان مباشـــراً لدعائهم، وعبر بما يذكر بحسن التربية زيادة في التعزية فاقتضى هذا السياق أن رغبه سبحانه بقوله: {لحكم ربك} أي المحســـن إليك فإنه هو المريد لذلك ولو لم يرده لم يكن شيء منه، فهو إحسان منه إليك وتدريب لك وترقية في معارج الحكم، وســـبب عن ذلك قوله لما يغلب على الطبع البشـــري في بعض أوقات الامتحان من نوع نسيان: {فإنك بأعيننا} جمع لما اقتضته نون العظمة التي هذا سياقها، وهي ظاهرة في الجمع وإشـــارة إلى أنه محفوف بالجنود الذين رؤيتهم من رؤيته ســـبحانه فهو مكلوء مرعى به وبجنوده وفاعل في حفظه فعل من له أعين محيطة بمحفظه من كل جهة من جهاته.

ولما كانت الطاعة أعظم ناصر وأكبر معز، وكانت الصلاة أعظمها قال: {وســـبح} أي أوقع التنزيه عن شـــائبة كل نقص بالقلب واللســـان والأركان، متلبساً {بحمد ربك} أي المحسن إليك، فأثبت له كل كمال مع تنزيهه له عن كل نقص، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يريد إلا ما هو حكمة بالغة

{حين تقوم *} أي من الليل في جميع الأوقات التي هي مظنة القيام على الأمور الدنيوية والأشغال النفسانية، وهي أوقات النهار الذي هو للانتشار بصلاة الصبح والظهر والعصر، وتحتمل العبارة التسبيح عند كل قيام بكفارة المجلس وهو «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله أنت أستغفرك وأتوب إليك» فإنها تكفر ما كان في المجلس- كما رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب والنسائي وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم {ومن الليل} الذي هو محل السكون والراحة {فسبحه} كذلك بالنية والقول كلما انتبهت وبالفعل بصلاة المغرب والعشاء وصلاة الليل، ولتعظيمه صرح بذلك وقدمه على الفعل، والضمير يعود على المضاف إليه، وأشار إلى التهجد بعد دخوله فيما قبله بقوله: {وإدبار النجوم *} أي وسبحه في وقت إدبارهم أي إذا أدبرت، وذلك من آخر الليل في نصفه الثاني: وكلما قارب الفجر كان أعلى وبالإجابة أولى، وإلى قرب الفجر تشير قراءة الفتح جمع دابر أي في أعقابها عند خفائها أو أفولها، وذلك بصلاة الفجر سنة وفرضاً أحق وأولى لأنه وقت إدبارها حقيقة، فصارت عبادة الصبح محثوثاً عليها مرتين تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها فإن ذلك ينجي من العذاب الواقع، وينصر على العدو الدارع، من المجاهر المدافع، والمنافق المخادع، وقد رجع آخرها على أولها، ومقطعها على موصلها، بحلول العذاب على الظالم، وبعده عن الطائع السالم- والله الموفق.